٣ ـ الانتحـــــار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيب بن رافع : وكان الامامُ قد شغل خاطره بهذه القصة فأخذت تمد مدها في نفسه ، ومكنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها في همه ، وتفتق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيأ بعضها من بعض كما يلد المعني المعني . فلما قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة ، انقدح له من كلامهما وكلامه رأي فقال :

يا أهل الكوفة : أنشدكم الله والاسلام ، أيما رجل منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره ؛ ولا يجدن في ذلك ثلباً ولا عاباً ، فإنما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم ؛ وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيبت فيه أسرار لم تكن فيه ، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألأ في سيف بريقه

وعقل الهم عقل عظيم ، فلو قد أريد استخراج علم يملئه الناس — من اللذات والنعم ، لكان من شرح هذا العلم في الحمير والبغال والدواب ما لا يكون مثله ولا قرابة في العقلاء ، ولا تبلغه القوى الآدمية في أهلها ؛ بيد أنه لو أريد علم من البؤس والألم والحاجة لما وجد شرحه إلا في الناس ثم لا يكون الخاص منه إلا في الخاصة منهم

وما بان أهل النعمة ولا غمروا المساكين في تطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يملون أكتاف الشياطين ؛ فالشيطان دابة الغني الذي يجهل الحق عليه في غناه ويحسب نفسه مخلى لشهواته ونعيمه ؛ كما هو دابة العالم الذي يجهل الحق عليه في علمه ، ويزعم نفسه مخلى لعقله أو رأيه ، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصر القصير ، وهل يصح في الرأي أن يقال هذا أطول من هذا لأن الأول فوق السلم والآخر فوق رجليه . . . .

* * *

قال المسيب : فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس ينفرجون له حتى وقف بإزاء الامام ؛ وتفرسته وجعلت عيني تعجمه ، فإذا شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه ، أبلج الغرة متهلل عليه بشاشة الايمان ، وفي أساريره أثر من تقطيب قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه . وعجبت أن يكون مثل هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوماً وأنا أرى بعيني نفسه هذه منبثقة في الحياة انبثاق النخلة السحوق

وتكلم هذا الرجل فقال :

أما إذ ناشدتنا الله والاسلام وميثاق العلم ووحي الأقدار في حكمتها ، فإني محدثك بخبري على وصفه ورصفه : أملقت منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري ، وأصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه ، وعجزت يدي حتى لظفر دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني ، وطرقتني النوائب كأنما هي تساكنني في داري ، وأكلني الدهر لحماً ورماني عظاماً فما كان يقف علي إلا كلاب الطريق ؛ ولي يومئذ امرأة أعقبت منها طفلاً ويلزمني حقهما ولا أستطيعه ، وكان بيننا حب فوق المعاشرة والألفة قد ترك لي من امرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبته ، غير أن الشعر في دمي لا في لساني

فلما نهكتني المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شحبت وانكسر وجهها وتقبض من هزاله : وايم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم الآدمي لذبحت نفسي لتأكلي وتدري على الصبي . ولقد هممت أن أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدا شؤمي عليكما ؛ ولكن ردني قلبي ، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي . ولست أدري والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضر فرجعنا من حطبها اليابس ، وعادت الشمس لا تغذوها بل تمتص منها ما بقي ، ولا تستضيء لها ، ولكن تستوقد عليها !

إن من فقد الخير ووقع في الشر ، حري أن يكون قد أصاب

خيراً عظيما إذا قتل نفسه تخلص من الشر والخير جميعاً ، لا يُكدى ولا ينجح ، ولا يألم ولا يلذ ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها . أما إنه ان كان القبرُ فالقبرُ ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرّة واحدة وفى شىء واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعاً أنواعاً . قد ماتت أيامنا وتركتنا نعيش كالموتى لا أيام لهم ، وزاد علينا الموتى فى النعمة والراحة أنهم لا يتطفلون على أيام غيرهم فيُطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك

قال : فاستعبرت المرأةُ باكية ، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تفجعنا فيك ؟ قلتُ : ما عدوتِ ما فى نفسى ؛ ولكن هل بقى فىّ من تفجعين فيه ؟ أما ذهب منى ذاك الذى كان لك زوجاً وكاسياً ، وجاء الذى هو همُّك وهمّ هذا الصبيّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تعطى ؟

أمْ والله لكأنى خُلقتُ إنساناً خطأً ، حتى إذا تبين الغلطُ أريد إرجاعى الى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك ، وبقيت بينهما ؛ عرّ الناس بى فيقولون إنسانٌ مسكين ؛ وأحسبُ لو نطقت الكلابُ لقالت عنى كلبٌ مسكين . ياعجباً عجباً ! لا ينتهى ، أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بَعرةٌ نجهدُ فى تحويلها ياقوتةً أو لؤلؤة . . . .

فقالت المرأة : والله لئن حييتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُتّ عليه إنه لأقبح وأشد

فقلت لها : ويحكِ وماذا تنظر العينُ المبصرةُ فى الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله ؟

قلت : فانظرى أنت وخبّرينى ماذا ترَيْن . أترَيْن رغيفاً ؟ أترَيْن إداماً ؟ أترَيْن ديناراً ؟

قالت : والله إنى لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك . أرى قمراً سيكشف هذه السُّدْفةَ المظلمة إن لم يطلُع فكأنْ قدْ

قال : فغاظتني المرأة ورأيتها حينئذ أشدّ على بقلة ذاتِ عقلها من قلة ذاتِ يدى ؛ ولولا حبّى إياها ورحمتى لها لأوقعت بها . واستحكم فى ضميرى أن أزهقَ نفسى وأدَعها لما كُتب لها وقلت : إن جُبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها ، وللقدَر يدٌ ضعيفةٌ على النساء تصفعهنّ وتمسح دموعهن ، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجلَ وتأخذُ بحلقه فتعصرُه

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية فى هذه الخليقة : أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تبلع . فحضرنى هذا القولُ تلك الساعةَ وشُبِّه لى ، واعتقدتُ أن هذا الانسانَ شىء حقيرٌ فى الغاية من الهوان والضّعة : حملته أمُّه كُرْهاً ، وأثقلتْ به كُرهاً ، ووضعته كُرهاً ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دَنا لها أن تضعَ لم يخرج منها حتى يضربَها المخاضُ فتتقلّب وتصيح وتتمزّق وتتصدع ؛ وربما نَشبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه . وإذا هى ولدته على أىّ حاليْها من عسرٍ وتطريق بمثل المطارق المحطّمة ، أو سَراحٍ ورَواحٍ كما يتيسر — فانما تلده فى مَشيمةٍ ودماءٍ وقذرٍ من الأخلاط كأنما هو خارج من جُرْح . ثم تتناوله الدنيا فتضمُّه من معانيها فى أقبحَ وأقذرَ من ذلك كله . ثم يستوفى مُدّتَه فيأخذه القبر فيكون شراً عليه فى تمزيقه وتعفينه وإحالته

قال : وحضرنى مع كلمة الجاهلية قولُ ذلك الجاهل الزنديق الذى يُعرفُ (بالبَقْلىّ) إذ كان يزعم أن الانسان كالبَقْلة — فاذا مات لم يَرجع . وقلت لنفسى : إنما أنتِ بقلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ فى أرضٍ نَشّاشةٍ فقتلها مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها

قال : وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوجّأ بها ، فتُبادِرُنى المرأةُ وتحولُ بينى وبينها ؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولى ، لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ؛ فما أدرى أىُّ مَلَكٍ هبط بوحى الجنة فى لسان امرأتى

قلت لها : إنها عَزْمةٌ منى أن أقتلَ نفسى

قالت : وما أريد أن أنقُضها ولستُ أرُدُّك عنها وستُمضيها

قلت : فخلّى بين نفسى وبين المُدْية

قالت : كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبيّ فلنقضِ معاً ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ، ولا ندعُ الصبيّ يتيماً يصفعُه من يُطعمه ، ويضربُه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فى أولاد الناس أنا ابن ذلك ولا ابنُ هذا

قلت : هذا هو الرأى

قالت : فتعالَ اذبح الطفل . . . . . .

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وما بلغ الرجل فى قصته إلى ذبح ابنه حتى ضجَّ الناسُ ضجةً منكَرة ؛ وتوهم كل أبٍ منهم أن طفله الصغير مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشُقُّ حَلْقَه بالصراخ : يا أبى ؛ أدركنى يا أبى

أما الامام فدَمَعَتْ عيناه وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول : إنا لله ، كيف تصنعُ جهنمُ حطَبها ؟

وأنا ما قطُّ نسيتُ هذه الكلمة ، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقة صنعته حطباً . . . كأن الشيطان لعنه الله يقول لأتباعه : جَفِّفُوه . . .

وكانت هُنيهاتٌ ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا ؟

* * *

قال الرجل : ففتحتُ عينى وقلبى معاً ورمقْتُ الطفلَ المسكين الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرتُ إلى مَجرى السكِّين من حلقه وإلى مَحزِّها فى رقبته اللينة ؛ ورأيتُه كأنما تَفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة ، ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتين ألا أذبحَه ، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه منى أمام قاتله ؛ ثم خُيِّل إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفضُ ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه

يا ويلتاه ! لقد أخذنى ما كان يأخذنى لو تهدَّمت السماء على الأرض ، وحسبت الكونَ كلَّه قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلا ربُّه أمام القاتل

فَهرولْت مسرعاً وتركت الدارَ والمرأةَ والصبىَّ وأنا أقول : يا أرحمَ الراحمين . يامن خلق الطفلَ عالَمُه أمُّه وأبوه وحدها وباقى العالم هباءٌ عنده . يامن دبَّر الرضيعَ فوهبه مُلكاً ومملكة وغنى وسروراً وفرحاً ، كلُّ ذلك فى ثَدْى أمِّه وصدرها لاغير . يا إلهى : أنسنى مثلَ هذا النسيان ، وارزقنى مثل هذا الرزق ، واكفلنى بمثل هذا التدبير فانى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه

* * *

قال الرجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسب أنها هى تفور حين فارت حشراتُها . ولقد كنت أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقه ولا يلتمسها إلا فى أقذر القذر

وما كدت أمضى كما تسوقنى رِجلاى حتى سمعت صوتاً ندياً ممطولاً يُرجِّع ترجيع الورقاء فى تحنانها وهو يُرتل هذه الآية :

« واصبرْ نفسك مع الذين يدْعون ربَّهم بالغداة والعشىِّ يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينةَ الحياة الدنيا ، ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا . »

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَل لا كلمات ، أحرقت كلَّ ما كان حولى ولمستْ مصباحَ روحى المنطفئ فاذا هو يتوهج ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره ، وارتفعتْ نفسى عن الجدَث الذى كنت فيه وكأنما لفتنى سحابةٌ من السحب فى روحى نسيم الماء البارد ورائحةُ الماء العذب

لعن الله هذا الاضطرابَ الذى يُبتلى الخائفُ به . إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائق على النفس وذَهابُ بعضها فى بعض ، وتَضرُّبُ الشرِّ فى الخير والخيرِ فى الشر حتى لا يَبينَ جنسٌ من جنس ، ولا يُعرف حَدٌّ من حد ، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة . وبهذا يكون الزمنُ على المبتلَى كالماء الذى جَمدَ لا يتحركُ ولا يَتَسايَرُ ، فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائماً لا يزال فى أوله يُنذرُ بالأهوال ، وقد يكون هَولُه انتهى أو يُوشك

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعترَى كل شىء ، فامتد الى آخر الكون والى آخر الزمن ؛ فلما سكن مابى إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام فى مكان من الأمكنة ؛ أما ماوراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان فذلك حكمُه حكمُ الشمس التى تطلُع وتغيب على الدنيا لاحيائها ؛ وحكمُ الماء الذى تَهمى السماءُ به ليسقى الأرض وما عليها ، وحكمُ استمرار هذه الأجرام السماوية فى مَدَارها لا تُمسكها ولا تزنها إلا قوة خالقها

أين أثر الانسان الدنىء الحقير فى كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟

وما الذى فى يد الانسان العاجز من هذا النظام كله فيَسُوغَ

له أن يقول فى حادثة من حوادثه إن الخير لا يبتدىء وإن الشر لا ينتهى ؟

تمترى المصائب هذا الانسانَ لتمحوَ من نفسه الخِسّة والدناءة ، وتكسر الشرَّ والكبرياء ، وتفثأ الحدّةَ والطيش ؛ فلا يكون من حمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة ، وكبرياءَ وشراً ، ودناءة وخسة ، فهذه هى مصيبة الانسان لا تلك المصيبة هى ما ينشأ فى الانسان من المصيبة

* * *

قال : ورددتُ الآية الكريمة فى نفسى لا أشبع منها ، وجعلتُ أرتلها أحسنَ ترتيل وأطربه وأشجاه فكانت نفسى تهتزُّ وترتجُّ كأنما هى تبدأ تنظيمَ ما فيها لاقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب

صبرُ النفس مع الذين يتلون روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشىّ ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وجهَ الله الذى سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مال أو متاع . وتقييدُ العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر فى الجمال والحب ؛ والربطُ على الارادة كيلا تتفلّت فتُسفَّ الى حقائر الدنيا المسماة هزُءاً وتهكما زينةَ الدنيا ، تلك التى تشبه حقائق الذباب العالية . . . فتكون قذرةً نجسةً ، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخلق . . .

تلك والله هى أسبابُ السعادة والقوة . أما المصائب كلها ، فهى فى إغفال القلب الانسانى عن ذكر الله

* * *

قال : ولما صحَّت توبتى ، وقوىَ اليقينُ فى نفسى ، كَبُرت روحى واتسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمال الالهى ساطعاً من كل شىء ، وكان الصبح يطلع علىّ كأنه ولادة جديدة ، فأنا دائماً فى عمر طفل . وجاءنى الخير من حيث أحتسبُ ولا أحتسب ، وكأنما نمتُ فانتبهتُ غنياً ، وعملَ القلبُ الحىُّ فى الزمن الحىّ

ولقد أفدتُ من الآية طبيعة لم تكن فىّ ، ولا يثبتُ معها الشر أبداً ؛ فأصبح من خصالى أن أرى الحاضرَ كلَّه متحركا يمرُّ بما فيه من خيره وشره جميعاً ، وأستشعرَ من حركته مثلما ترى عيناى من قطار الابل يهتزُّ تحت رحاله وهو يُغِذُّ السير

لم أَبْعِدْ قليلاً وأنا أمشى مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعانى رجلٌ ذو نعمة ومروءة وجاه ، وكأنما كلّمه قلبه أو كلّمه وجهى فى قلبه فاستنبأنى ، وبثثته حالى واقتصصتُ قصتى . فقال : سيُحييك الله بالطفل الذى كدتَ تقتله فارجع الى دارك . ثم وجّه الىّ دنانير وقال : اتّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال حتى يبلغ أشُدَّه . وقد صدق إيمانه وإيمانى فبارك لى الله ونما طفلُ المال وبلغَ وجاوزَ الى شبابه

* * *

قال المسيَّب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الامام : ما أشبه النكبة بالبيضة تُحسَبُ سجناً لما فيها وهى تحوطُه وتربّيه وتُنميه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبرُ الى مدة ، والرضى الى غاية ، ثم تنقُفُ البيضةُ فيخرجُ خلقاً آخر

وما المؤمنُ فى دنياه إلا كالفرخ فى بيضته ، عملُه أن يتكوّن فيها ، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكامل فيخرج الى عالَمِه الكامل

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى

والآراء الجديدة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع المبدولى — القاهرة

وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد